

موقف عبد الرحمن الحاج صالح من تأثر النحو العربي بالنحو الأجنبي

The position of Abd al-Rahman al-Hajj Salih in the influence of Arabic grammar on foreign grammar

ط.د أحمد عابد⁽¹⁾ * .أ.د. محمد بوعرارة⁽²⁾

⁽¹⁾ جامعة تيسمسيلت، مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة، الجزائر،

doctourabed2018@gmail.com

⁽²⁾ جامعة تيسمسيلت، مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة، الجزائر،

mbouarara@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2023/09/21؛ تاريخ القبول: 2023/11/06؛ تاريخ النشر: 2023/12/31

ملخص:

يروم هذا المقال إلى بيان موقف الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح من قضية تأثر النحو العربي بمنطق أرسطو أو النحو الأجنبي، وكيف ردّ الدكتور على الشبهات التي أثّرت حول أصالة النحو العربي والتي تتلخص في أمور أربعة: اختلاط العرب بالعجم وتأثرهم بهم، نضج النحو العربي في بداياته، والتقسيم الثلاثي للكلمة، وأخيرا استعمال التعليل المنطقي، وقد فنّدها عبد الرحمن الحاج صالح بأدلة تاريخية وعلمية مقنعة، والتي سيجدها القارئ بين يديه في هذه الورقة البحثية.

كلمات مفتاحية: النحو العربي؛ النحو اليوناني؛ النحو السرياني؛ منطق أرسطو؛ عبد الرحمن الحاج صالح.

Abstract:

This article aims to clarify the position of Dr. Abd al-Rahman al-Hajj Salih regarding the issue of Arabic grammar being influenced by Aristotle's logic or foreign grammar, and how the doctor responded on the suspicuous raised about the originality of Arabic grammar which can be summed up in four matters: the mixing of Arabs with non-Arabs and their influence on them, the early maturity of Arabic grammar, dividing

the word into three parts , and finally the use of logic explanation , and interpretation that Abd al-Rahman al-Haj Saleh responded to it with historical and scientific evidence, which the reader will find in his hands in this research paper.

Keywords: Arabic grammar, Greek grammar, Syriac grammar, Aristotle's logic, Abd al-Rahman al-Hajj salih

المقدمة:

ارتبطت اللغة العربية بالقرآن الكريم، وأخذت قدسيتها وعظمتها من عظمتها، ونشأت العلوم حماية لهذا السفر العظيم من اللحن والزلل، " فنشأ النحو في العراق صدر الإسلام نشأة عربية على مقتضى الفطرة، ثم تدرّج به التطور تمشياً مع سنة الترقّي حتى كملت أبوابه، غير مقتبسٍ من لغةٍ أخرى، لا في نشأته ولا في تدرجه "(1).

ثم انتشرت عملية تقعيد القواعد النحوية، فظهرت مدارس نحوية في البصرة والكوفة، وبدأ ينمو ويزدهر حتّى وصل إلى مرحلة النضج والاكتمال في عهد أبي عثمان المازني وابن السكّيت الكوفي، وغيرهما.

رغم ذلك فإننا نجد العديد من المستشرقين والدارسين العرب المحدثين يشككون في أصالة النحو العربي، حيث أنكروا أن يكون من وضع أبي الأسود الدؤلي، أو غيره من العرب، وذهبوا إلى أنه متأثر بالنحو الأجنبي، وتبعهم على ذلك عدد من الدارسين العرب المحدثين، أمثال إبراهيم بيومي، وجرجي زيدان، وإبراهيم أنيس وغيرهم، وهم يصرون في ذلك عن رأي شائع عمدته أنّ النحو العربي في طور نشأته ما كان بمعزل عن الفكر الأجنبي وعن التأثير به، ويحملون المصادر التي استند إليها النحاة وهم يضعون علم العربية في النحو الهندي، والنحو الفارسي، والنحو السرياني، والمنطق الأرسطي، والنحو اليوناني

وقد انبرى للرد على أقوال هؤلاء المستشرقين جمع من الباحثين العرب، ولعلّ من أبرزهم العلامة الجزائري البروفسور عبد الرحمن الحاج صالح والذي يُعدّ من رواد الرفض لدعوى تأثير النحو العربي بالمنطق والفلسفة اليونانية، وقد ردّ على حجج وشبهات أولئك القوم، مفندا إياها بأدلة تاريخية وعقلية.

(1) الطنطاوي محمد، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2005 م، ص12.

وقد تعجّب من أولئك القوم الذين جرّدوا العرب من كلّ اجتهاد وإبداع، حيث يقول: "والغريب المقلق أنّ أشهر هذه الآراء التي ألبست لباس البحث النزيه هي التي تنفي كل طرافة للمناهج العربية في النحو، وتنكر أن يكون النحاة أخرجوا شيئاً جديداً لعجزهم أو عجز البيئة الاجتماعية العربية على إتيان مثل هذا الصنع المبتدع"⁽²⁾.

والأدهى والأمرّ أن يتبنّى هذا الأمر ممن هم من أبناء جلدتنا، ويتكلمون بالسنتنا، مستندين إلى تخمينات واهية، وادعاءات من الصواب خالية، فكلّ ما جاءنا من وراء البحار صواب لا يقبل الجدل، وهذا ما صرح به عبد الرحمن السيد: فمن العجيب عنده، أن يكون هذا الموضوع، موضع جدلٍ ونقاش، بين بعض العلماء اليوم، لا لشيء، إلا لأنّ بعض المستشرقين، لم يقبلوا هذه الروايات، فكان لزاماً علينا أن نسير في ركايتهم، وأن نهج نهجهم، وأن نجاريهم في شكهم، في هذا التراث العربيّ الإسلامي، أو على الأصح في تشكيكهم فيه، حتى لا نهم بالجمود والتعصب، وحتى نوصف بالتجديد والابتكار، وحتى نوصف بأننا بحثنا بالطرق العلمية الصحيحة بدون تحيز ولا انحرف، حتى لو كانت طرقنا صحيحة، ولو كان حكمنا بريئاً من التعصب...⁽³⁾.

والإشكالية التي يمكن طرحها هي:

ماهي الشبهات التي أثّرت حول أصالة النحو العربي؟ وكيف ردّ عليها الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح؟

وسأحاول في هذه الورقة البحثية استعراض حجج المستشرقين ثم أتبعها بردود العلامة عبد الرحمن حاج صالح، مع تأييد أقواله - إن اقتضت الحاجة - بالحجج والبراهين وأقوال اللغويين.

حجج القائلين بتأثر النحو العربي بغيره:

عند التأمّل في مقالات وكتابات القائلين بتأثر النحو العربي بغيره يمكن تلخيص حججهم وأدلتهم في أمور أربعة وهي:

1/ اتصال أوائل النحاة ببعض الأعاجم المترجمين للنحو السرياني واليوناني.

(2) عبد الرحمن الحاج صالح، النحو العربي ومنطق أرسطو، مجلة كلية الآداب (الجزائر) العدد الأول، 1964، ص 76.

(3) ينظر: عبد الرحمن السيد، مدرسة البصرة النحويّة نشأتها وتطورها، ط 1، كلية دار العلوم، القاهرة، د، ص 53.

2/ نضج النحو في بداياته.

3/ التقسيم الثلاثي للكلمة.

4/ التعليل والقياس.

يقول في ذلك محمد خير الحلواني أنه قد ترسّخ في أذهان كثير من الباحثين في النحو العربي اليوم أنّ المنطق الصوري أمدّ علماء النحو العرب بكثير من أساليب البحث، وخاصة في الدرس اللغوي، أفادوا منها إفادة مباشرة في جانب، وغير مباشرة، وقد ارجعوا في كثير من الجزم إلى أنّ ما انتهجه نحاة العربية من استخدام القياس والعلة، وما اصطنعوه في تقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف، إنما يرجع في أصله إلى المنطق الصوري، أو إلى الثقافة اليونانية عموماً⁽⁴⁾.

وهو ما أكدّه عبد الرحمن السيد بقوله "وهم حينما يزعمون ذلك أو يظنونونه يعترفون بأنهم لا يصدرّون في قولهم عن أصل ثابت رجعوا إليه، أو عن دليل قاطع اعتمدوا عليه، وإنما يجعلون عمادهم وحجتهم أنهم وجدوا في النحو العربي مشابه مما في نحو بعض الأمم الأخرى، وأن التقسيم الأولي للكلمة عند العرب هو نفسه، أو بفارق ضئيل تقسيمها عند الشعوب الأخرى"⁽⁵⁾.

وقد ردّ عبد الرحمن الحاج صالح على هذه الشبهات التي أثيرت حول النحو العربي لهزّ كيانه وزلزلة جذوره، كل ذلك مشفوع بأدلة تاريخية وعقلية علمية مقنعة، منطلقاً من فكرة أنّ النحو قد نشأ مع هذه اللغة نفسها فتطور بتطورها، وخمل بخمولها.

أولاً: اتصال أوائل النحاة ببعض الأعاجم المترجمين

يرى القائلون بتأثير النحو العربي بنحو غيرهم، أنّ اختلاط العرب بالعجم واطلاعهم على آدابهم سهّل لهم نسج نحوٍ على منوال نحو أولئك القوم، يقول جرجي زيدان: "فالظاهر أنّ العرب لما خالطوا السريان في العراق اطلعوا على آدابهم وفي جملتها النحو، فأعجبهم. فلما اضطروا إلى تدوين نحوهم نسجوا على منواله لأن اللغتين شقيقتان"⁽⁶⁾. ويرجع ذلك -في رأيه- أنّ العرب وضعوا النحو وهم في العراق بين السريان والكلدان.

(4) ينظر: محمد خير الحلواني، بين منطق أرسطو والنحو العربي في تقسيم الكلام، مجلة المورد، وزارة الثقافة والإعلام دار الجاحظ، الجمهورية العراقية، العدد الأول 1400 هـ / 1980، المجلد التاسع، ص 19.

(5) عبد الرحمن السيد، مدرسة البصرة النحوية، ص 94.

(6) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، د ت، ج 1 ص 270.

ويزعم مذكور البيومي إلى أنَّ أثر المنطق اليوناني وصل إلى النحو العربي عبر السريان، وبيان ذلك أن النحاة السريان تأثروا بالمنطق اليوناني، ثم كان من بين من اتصلوا بالعرب من السريان نحاة مثل يعقوب الرهاوي، الذي يصفه بأنه صاحب شأن في وضع النحو السرياني، وحنين بن إسحاق الذي كان معاصراً للخليل بن أحمد وسيبويه، فالنحو تأثر عنده بكل تأكيد بالنحو اليوناني ومنطق أرسطو بالخصوص، فقد اتصل واضعيه والمشتغلين به بالعرب ونحاتهم وعاشوا معهم، فيعقوب الرهاوي له شأنه في وضع النحو السرياني، وحنين بن إسحاق مترجم آخر معاصر للخليل وسيبويه، بل صديق للخليل، وقد تعلم العربية في سن متقدمة، ومن المرجح أنه تبادل فيما تبادل مع الخليل بعض القواعد النحوية، خصوصاً وهو يعزى إليه أنه ترجم بعض كتب الأبرومية اليونانية، وأتم مع ابنه إسحاق البقية الباقية من كتب أرسطو المنطقية⁽⁷⁾.

ويجد دي بور مبرراً لهذا التأثير في ابن المقفع، الذي كان في أول الأمر صديقاً للخليل بن أحمد الفراهيدي أستاذ سيبويه، ويسر للعرب الاطلاع على ما كان في اللغة الفهلوية من أبحاث لغوية ومنطقية⁽⁸⁾، لكن هؤلاء غفلوا أو تغافلوا أن اليونانية تختلف نحواً وطبيعة عن العربية، ولم يكن واضح النحو عارفاً أو متأثراً باليونانية بأي وجه من الوجوه، كما ذكر ذلك الكثير من الباحثين العرب وغير العرب.

وقد أبطل عبد الرحمن الحاج صالح شبهة تأثير حنين بن إسحاق على الخليل بدليل تاريخي، وهو وفاة الخليل قبل ولادة حنين بسنوات، يقول عبد الرحمن الحاج صالح: "قد يتساهل المنظر فيبني جميع أقواله على خبر ورد في كتاب أدب أو كتاب من كتب الطبقات. كفكرة بناء النحو العربي من أوله أو ابتداء من الخليل على المنطق اليوناني وقد يستشهد على ذلك بقول القفطي أن الخليل كان يلتقي ويتحدث مع حنين بن إسحاق ناسياً أنَّ الخليل توفي قبل ولادة حنين بعشر سنوات"⁽⁹⁾.

ومع نفي الدكتور عبد الرحمن تأثر العرب بالسريان، نجده يثبت عكس ذلك، فيؤكد أنَّ السريان أخذوا عن العرب فكرة تخصيص النقط للحركات وهذا في القرن الثامن ميلادي

(7) ينظر: إبراهيم مذكور بيومي، في اللغة والأدب، دار المعارف، القاهرة، 1971، ص 45، 46.

(8) ينظر: دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريده، ط4، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1957م، ص 39.

(9) عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، موفم للنشر، الجزائر، 2012 ج1، ص16.

على يد المترجم حنين بن إسحاق، " وقد صرّح الاختصاصي في هذا الميدان الأب مارتين أن النقط السرياني الكامل الممثل لجميع الحركات لم يظهر عند السريان إلا في القرن الثامن الميلادي، ورجح أنّ حنين بن إسحاق المترجم المشهور هو ممن تبنى النقط المخصص فقط للحركات كما كان يفعله العرب"⁽¹⁰⁾.

إنّ القائلين بهذه الشبهة منقسمون إلى قسمين اثنين: قسم يرى أنّ التأثير كان مباشراً، وذلك عن طريقة الترجمة اليونانية إلى العربية، وقسم رأى أن التأثير جاء بطريقة غير مباشرة، وزعمهم أنّ العرب حاكوا اليونان في طريقة نحوهم، ونسجوا نحوهم العربي على منوالهم، إلا أننا عند التمهّص نجد أنهم بنوا أحكامهم على تخمينات لا حقائق، وادعاءات خالفها التاريخ والواقع.

ثانياً : نضج النحو في بداياته:

من الحجج التي استشهد بها القائلون بتأثير النحو بغيره هو نضجه في بدايات نشوئه، إذ ما من علم إلا ويبدأ صغيراً غير مرتب، ثم مع مرور السنوات ينمو ويبلغ مرحلة الاكتمال والنضج، لكن النحو العربي، خالف هذا الأصل والقاعدة، فبدأ مع سيبويه ناضجاً مكتملاً، وهذا في رأي هؤلاء دليل على أن العرب اقتبسوه ممن سبقهم من اليونان والسريان، وترجموه إلى لغتهم.

يقول إبراهيم مذكور: "لعل في هذا ما يفسّر تلك المفاجأة التي أحدثها كتاب سيبويه بظهوره في تلك الصورة الجامعة دون أن تصل إلينا سوابق ممهدة له"⁽¹¹⁾.

وقد ردّ على هذه الشبهة عبد الرحمن الحاج صالح، وبَيّن أنّ ماركس وغيره قد قاسوا النحو العربي بنحوهم وفكرهم اليوناني الذي لم يبلغ النضج إلا بعد مراحل من الزمن، وكأنهم جعلوه الأصل الذي يبنى عليه غيره، ولكن هذا ليس مسلماً له، قال عبد الرحمن الحاج صالح: " واعتمد ماركس على شهادة التطور الفكري اليوناني ولكن هذا الشاهد ليس بأصل (cas typique) يبني عليها قياس"⁽¹²⁾.

وقد بنى ماركس قياساته على فرضيات لا حقائق وقواعد متفق عليها، فنجد "ينطلق من

(10) عبد الرحمن الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، موفم للنشر، 2012، ص 22.

(11) إبراهيم مذكور، في اللغة والأدب، ص 46.

(12) عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج 1، ص 49.

افتراضات ثلاثة يجعلها كأنها مسلمّات. فالأولى هو ضرورة مرور زمان طويل -عدة قرون- حتى تتكون القواعد النحوية، ويجعل كأصل لذلك تطور النحو اليوناني ونشأته فيقيس عليه⁽¹³⁾.

وهذا القياس غير صحيح، لأنه قياس مع فارق لانتفاء العلة التي بسببها يمكننا إلحاق النحو العربي بالنحو السرياني، قال عبد الرحمن الحاج صالح: "ونلفت أنظار الباحثين إلى أننا لا ننكر أبداً أن التطور للعلوم ربما اقتضى زماناً مفرط الامتداد، إنما الذي نأباه أن يلحق شيء بشيء وليس في الثاني ما في الأول من العلة وهذا أبسط الاستدلال (قياس شبهة)"⁽¹⁴⁾.

ثم بيّن الدكتور أنّ العلوم الإسلامية البحتة قد امتازت عن علوم الأوائل في سرعة اكتمالها، وقد أجمع العلماء على حقيقة هذه الظاهرة. ففي أقل من قرن خرج إلى الوجود نحو تام التكوين سويّ الخلق منسجم الأطراف، ونجده في كتاب سيبويه. فهل هذا خرق للعادة المألوفة؟ نجيب بأن هذا ليس خرقاً للعادة التي معناها (سنة الكون) إنما هو خروج عن العادة المألوفة عند بعض الناس، وأنه ينبغي أن نحلّ هذه الظاهرة محلها من الظاهرة الكبرى التي قلبت أوضاع العالم القديم⁽¹⁵⁾.

وإذا كان الأمر كذلك فلم الاستغراب والتعجب من سرعة نضج النحو؟ ضفّ إلى ذلك أمراً غفل عنه هؤلاء، والذي يمكن عدّه أمراً جوهرياً، وسبباً أساسياً في نضج النحو بسرعة، ألا وهو الحامل لهم على إنشاء النحو، وهو صيانة القرآن الكريم وحفظه من اللحن والزلل، فمحنة المسلمين لدينهم وقرآنهم جعلهم يبذلون أوقاتهم وحياتهم من أجل الحفاظ عليهما، مما أدّى إلى بلوغه مرحلة النضج في مراحل مبكرة من نشأته.

ثالثاً: التقسيم الثلاثي للكلمة:

من أكثر الشبه التي استند عليها القائلون بتأثر النحو العربي بغيره شبهة التقسيم الثلاثي للكلمة، حيث يزعمون أن القسمة الثلاثية: اسم، وفعل، وحرف من وضع أرسطو واليونان والسريان، يقول جرجي زيدان: "وأقسام الكلام في العربية هي نفس أقسامه في السريانية"⁽¹⁶⁾. وقد سبق جرجي زيدان في هذا بعض المستشرقين أمثال ماركس الذي قال

(13) عبد الرحمن الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، ص 42.

(14) ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج 1، ص 49.

(15) عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج 1، ص 49.

(16) جرجي زيدان، تاريخ أدب اللغة العربية، ج 1، ص 221.

عن أقسام الكلام : " ويقسم سيبويه الكلام إلى ثلاثة أقسام الاسم والفعل والحرف فيها هو ذا تقسيم أرسطو الذي حسنه فيما بعد نحاة اليونان" (17)، ويقول جورج سارطون صاحب (المدخل إلى تاريخ العلوم): "« قال ابن خلكان إن عليا وضع له الكلام كله ثلاثة أضرب: اسم وفعل وحرف ثم دفعه إليه وقال له تَمَّ على هذا» يذكرنا هذا بما في المنطق الأرسطوطاليسي إذ أرسطو لم يحص هو أيضا في الكلام إلا ثلاثة أقسام وهي : Rhema و Onoma و Sundesmos فمما لاشك فيه أنّ العرب حصلوا على هذا بفضل المنطق اليوناني وأنّ اجتهادهم في النحو قد تأثر به" (18).

وقد أوضح عبد الرحمن الحاج صالح أنّ رأيهم هذا قد جانب الصواب، وأوقعهم في زلل لم يسبقوا إليه، فقد " رأوا في تقسيم العرب للكلام تقسيما أرسطو طاليسيا محضا. ويا ليتهم ما فعلوا هذا فينجوا من زلل لم يصب به أي عالم من قبلهم" (19).

واستدلّ على رأيه بحقيقة فانت ماركس ومن نحا نحوه وهي أنه "لا يوجد في كتب أرسطو أي تقسيم ثلاثي للكلام مطلقا" (20)، وهذه الحقيقة قد ذكرها وصرّح بها النحوي الإنجليزي هاريس (J.Harris) الذي عاش في القرن 18 م إذ يقول : " والحق أن Deny d'Halicarnasse و Quintilien يصرحان أن أرسطو وتيوديكس والنحاة الأقدمين لم يقسموا الكلام إلا على ثلاثة أقسام: الاسم والكلمة والرباط ... أما أرسطو فإننا نستطيع الجزم بخلاف ما قاله وذلك بشهادة ما صرّح به هو نفسه" (21).

والمتتبع لكلام أرسطو وبخاصة في كتاب الشعر يجده قد قسم الكلام إلى أربعة أقسام لا ثلاثة، ولعلّ "أكبر دليل على ذلك هو النص الأصلي الذي ورد فيه التقسيم وهو نص كتاب الشعر، ففيه تقسيم رباعي لا ثلاثي: الاسم والكلمة والرباط والفاصلة" (22).

ويذهب الدكتور إلى أبعد من ذلك، إذ يقول أنّ هذين النحويين اللذين يزعم ماركس أنهما سبب التأثير في النحو العربي غير معتمدين حتى عند النحاة السريان فكيف نقول

(17) عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات ج1، ص 53.

(18) المرجع السابق، ج1، ص 45.

(19) عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات، ج1، ص 44.

(20) المرجع السابق، ج1، ص 53.

(21) المرجع السابق، ج1، ص 54.

(22) عبد الرحمن الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، ص 75.

بتأثيرهما على غيره؟ إذ "تأثيرهما في الثقافة السريانية منعدم تماما، إذ لا نجد في كتبهم إلا مرجعا واحدا وهو Denys le thrace الذي قسّم الكلام إلى ثمانية أقسام وهي غير الأقسام الأرسطوطاليسية، ثم لم يكونا من شراح أرسطو فيتأثر بهما المنطق اليوناني الذي يزعم ماركس أنه مستقى النحاة العرب"⁽²³⁾.

واستشهد أيضا برأي المستشرق الفرنسي الشهير لويس ماسينيون، الذي يرى أنّ النحو العربي كان ممتنعا أشد الامتناع من التأثر بالسريانية أو اليونانية، حيث يقول: "أنه منذ اختفاء ماركس حظينا بدراسة وثائقية لطرق الترجمة العربية للأرجانون، وذلك بواسطة السريانية. وقد بينت لنا هذه الدراسات أن النحو العربي كان أشدّ امتناعا من السرياني على تسرب اليونانية إلى أوضاعهما. وكان قبل أن يتخذ العرب التقسيم الثلاثي اليوناني لأقسام الكلام (اسم - فعل - حرف) قد أبدعوا تقسيما ثنائيا موافقا للأصول الجدلية السامية (أصل - فرع، عمدة - فضلة، مبتدأ - خبر)"⁽²⁴⁾.

ومن الأدلة التي استند عليها عبد الرحمن الحاج صالح هو الاختلاف في التقسيم بين العرب واليونان من حيث المعنى والدلالة، فأرسطو يهتم بجزأي الحكم (الاسم والكلمة) لأجل الحكم فقط، أما النحو العربي فقد أسس من أجل غرض الإفادة، فاهتمامهم منصب على الحديث لا الحكم، يقول الحاج صالح: "تقسيم العرب للكلام له غرض غير غرض المناطقة، وأساسه غير أساس التقسيم الأرسطو طاليسي، فأرسطو يهتم بجزأي الحكم (الاسم والكلمة) لأجل الحكم فقط ..."⁽²⁵⁾، ويقول في موضع آخر: "إنّ النحو العربي قد أسس على الغرض الذي منه خلق اللسان وهو الإفادة، فغرضه لغوي محض إذ يجعل الاسم والفعل عمادين للحديث وهو ما يجري بين المتكلم والمخاطب ..."⁽²⁶⁾.

وبهذا يتضح لنا وهاء هذه الشبهة، فالتقسيم الثلاثي للكلمة هو أصيل أصالة النحو العربي، أخذه أبو الأسود عن الصحابي الجليل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو موجود في لغتنا العربية قبل دخول عصر الترجمة اليونانية إلى العربية أو السريانية إلى العربية.

(23) عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات ج1، ص 54.

(24) المرجع السابق، ج1، ص 46.

(25) المرجع السابق ج1، ص 54.

(26) المرجع السابق ج1، ص 55.

رابعاً: التعليل والقياس المنطقي:

لقد تميّز النحو العربي بالتعليلات والأقيسة في أحكامه، وقد حمل البعض هذا الأمر على تأثر النحو بمنطق أرسطو، وجعلوه من أوضح الأدلة على ذلك، يقول الحاج صالح: "قد ادّعى بعض الباحثين في زماننا أنّ مفهوم العلة عند النحويين هو مفهوم أخذه هؤلاء من أرسطو"⁽²⁷⁾، بل وصل ببعضهم إلى القول والزعم أنّ التعليل لا يمت للعربية بصلة، يقول الدكتور إبراهيم أنيس: "لذلك لا نعجب حين نرى اللغويين القدماء من العرب قد سلكوا هذا المسلك من الربط بين اللغة والمنطق الأرسطوطاليسي، وأن نشهد في بحوثهم اللغوية من الأقيسة والاستنباطات ما لا يمتّ لروح العربية بصلة ما"⁽²⁸⁾.

وقد دحض تمام حسان أطروحة تأثير المنطق اليوناني في النحو العربي قائلاً: "إن للعقل قوانينه الأساسية البديهية التي لا تحتاج إلى برهان على صدقها لأنها ضرورية، فليست هذه البديهيات من عمل العقل ولكنها من بنية العقل ومن تركيبه. فإذا نظرنا مثلاً إلى قانون الهوية الذي يقضي بأن الشيء هو وجدنا أن المرء لا يفتقر إلى منهج أرسطو ليعرف أن يده هي يده، فإذا وجدنا النحاة يقولون:

ولا يضاف اسم لا به اتحد معنى وأول موهما إذا ورد

فلا ينبغي أن ننسب ذلك إلى أثر المنطق اليوناني على النحو العربي، لأن الشيء هو وما في معناه يجمع بينهما قانون الهوية وهو من البديهيات..."⁽²⁹⁾.

ويرى عبد الرحمن الحاج صالح أنّ ماركس قال بتأثر النحو بالمنطق الأرسطي لأنه جاهل تمام الجهل بوجود أنواع أخرى غير منطق أرسطو، وجهله هذا هو الذي حمّله على ادعائه وزعمه، فـ"ماركس لا يعرف منطقاً آخر غير منطق اليونان وخاصة منطق أرسطو وهو يجهل تماماً أن هناك أنواعاً أخرى من المنطق وفي زمانه بالذات قد نشأت مدارس جديدة تماماً في المنطق كمدرسة بول (Bool) وكانطور (Cantor) وغيرهما، ثم إنه يجهل تماماً على أي أسس بني منطق النحاة والفقهاء"⁽³⁰⁾.

(27) عبد الرحمن الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، ص 330.

(28) إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، 1966، ص 119.

(29) تمام حسان، دراسة استيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، 2000، 46 و 47.

(30) عبد الرحمن الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، ص 43.

وقد فرّق الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح بين منطق أرسطو والاستدلال العربي، فذكر أنّ أرسطو بنى منطقاً على الاشتغال الذي يعني دخول شيء تحت آخر، أمّا العرب فاستدلالاتهم تشبه الاستدلال في الرياضيات، الذي يحمل شيء على شيء لوجود علة بينهما، ومن ثم يلحقه به في الحكم، يقول في ذلك " قد بيّنت في أكثر من موضع أنّ منطق أرسطو قد بناه صاحبه على مفهوم الاشتغال (أي اندراج شيء تحت شيء آخر) ... أمّا الاستدلال العربي فهو مبني لا على هذا الاندراج بل على حمل شيء على شيء أو إجرائه عليه، ومن ثم إلحاقه به في الحكم لوجود جامع بينهما يستنبطه الباحث بهذا الإجراء. وهذا هو عين الاستدلال في الرياضيات، وهذا الفارق بين القياسين اليوناني والعربي هو أساسي ولم يدركه إلا القليلون من الناس" (31).

إنّ التعليل النحوي قد نشأ مع النحو العربي، وذلك من أجل تبرير أحكامه وتفسيرها، وخادماً لنصوصه، ولا دخل للمنطق في هذا الباب، ومن زعم خلاف ذلك فقد سلب الإنسان أهم ما يميزه عن باقي المخلوقات ألا وهو العقل الذي يعدّ آلة التعليل والقياس والتفسير.

خاتمة:

خلاصة القول: لقد نشأ النحو العربي نشأة عربية إسلامية، بعيدة عن أي تأثير أجنبي، وهذا ما أصّله عبد الرحمن الحاج صالح، وناقض عنه في كتبه ومقالاته، إذ يؤكد أنه من المستحيل أن يكون قد وقع تأثير يوناني على النحو العربي، مفنداً رحمه الله كل ما أثير من شبهات نحوه، والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

- 1- اختلاط علماء اللغة بالأعاجم: لم يتأثر العرب بمن جاوهم من الأمم في صنع النحو العربي، إذ أنّ وضع النحو العربي أسبق في الزمن من احتكاك العرب الوثيق بعلوم اليونان وفلسفتهم.
- 2- النضج المبكر للنحو العربي: وقد جعل عبد الرحمن الحاج صالح ذلك دليلاً على ذكاء العرب، فسرعة النضج دليل العبقرية لا التقليد والتبعية للغير.
- 3- التقسيم الثلاثي للكلام: وفند هذه الشبهة من الوجهة التاريخية، ومن وجهة المقارنة، أما الوجهة التاريخية فلم يثبت أصلاً التقسيم الثلاثي للكلمة عند أرسطو، بل ثبت خلاف ذلك، وتقسيمه للكلمة بأكثر من ثلاثة أقسام، أما من وجهة المقارنة فتقسيم العرب للكلام له غرض يختلف عن غرض تقسيم المناطق.

(31) عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج 1، ص 15.

4- استعمال العرب للقياس والتعليل: استعمال القياس والتعليل طبيعة في البشر، فطر الله الناس عليها، وليست هذه العملية العقلية ابتكارا وحكرا على أرسطو فقط.

وأختم مقالي بالقول أنّ النحو العربي لم يتأثر في ابتداء نشأته بمنطق أرسطو ولا بنحو اليونان أو السريان لا في مناهج بحثه ولا في مضمونه، وهو لا يدين بشيء لأيّ طرف أجنبي في نشأته وتطوره واكتماله.

المراجع:

- (1) إبراهيم مذكور بيومي، في اللغة والأدب، دار المعارف، القاهرة، 1971.
- (2) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، د.ت، ج1.
- (3) دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط4، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1957م.
- (4) الطنطاوي محمد، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2005 م.
- (5) عبد الجليل مرتاض، الفسيح في ميلاد اللسانيات العربية، ط2، دار هومه الجزائر، 2009.
- (6) عبد الرحمن الحاج صالح، النحو العربي ومنطق أرسطو، مجلة كلية الآداب (الجزائر) العدد الأول، 1964.
- (7) عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، موفم للنشر، الجزائر، 2012.
- (8) عبد الرحمن الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، موفم للنشر، 2012.
- (9) عبد الرحمن السيد، مدرسة البصرة النحوية نشأتها وتطورها، ط1، كلية دار العلوم، القاهرة، د.ت.
- (10) محمد خير الحلواني، بين منطق أرسطو والنحو العربي في تقسيم الكلام، مجلة المورد، المجلد التاسع، العدد الأول، وزارة الثقافة والإعلام دار الجاحظ، الجمهورية العراقية، 1400 هـ / 1980.